المقتطف

الجزء الرابع من السنة الثالثة عشرة

١ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٩ = الموافق ٢٩ ربيع ثاني سنة ١٣٠٦

فلسفة الخداع

انتصب المقتطف لتحرّي المباحث الفلسفيّة والعلمية غير متشيّع لغير الحق اليقين ولا متوخٍّ سوى نشر الحقائق ونقض الاباطيل فقام لنصرته كثيرون من الفضلاء كما تصدّى لمعارضته كثيرون من الجهلاء فاعتضد باولئك وشدّد الوطأة على هؤلاء والحقائق لا تتعزّز ما لم تطأ على هام الاباطيل

ومن المسائل التي طرق بابها مرارًا مسئلة خداع الحواس. فان حواس الانسان وهي معتمدهُ في معارفهِ تخدعهُ المرار الكثيرة فيرى ويسمع ويلمس ويشمُّ ويذوق اشياء وهميّة لا وجود لها في الحقيقة او يشعر بها على غير ما هي عليهِ ويبني على ذلك قصورًا شاهقة من الاوهام والخرافات "تخرُّصًا واحاديثًا ملفقةً". وتاريخ الانسان من اول عهدهِ الى يومنا هذا مشحون بما لو خُصّ بنار العلم لردَّ اكثرهُ الى خداع الحواس ونتاج الوهم. ولا لوم عليهِ ولا تثريب لانهُ اذا لم تكن الحواس اعدل شهودهِ فاين يجد الشهود العدول للحكم على ما يراهُ ويشعر بهِ. لذلك اذا قال لي قائلٌ رأيتُ السماء تمطرُ رجالاً ونساء وكنتُ على ثقة من انهُ صادق الرواية يتكلم بالحقيقة لا بالمجاز ولا يحدّث الاَّ بما يرى عيانًا اغضُّ الطرفَ عن تكذيبهِ والتفتُ الى الاسباب التي حملتهُ على رؤية ما رأى. وكذلك اذا سمعتُ هاتفًا يناجيني و يقول لي أنَّ سيحدث الحادث الفلاني بعد كذا وكذا من الايام ودوَّنتُ ما سمعتُ في دفاتري ثم حدث الحادث الذي أُنبئتُ بهِ في اليوم المعيَّن لحدوثهِ لم اقضِ حقَّ العلم ان لم ابحث عن الاسباب التي جعلتني اسمع هذا الصوت المنبئ بالحوادث قبل حدوثها

هذا ومرادنا الآن ان نشرح بعض انواع الخداع ونبيّن اسبابها حتى تُعلَم حقيقتها وتزول غرابتها لانهُ اذا عُلِم السبب بطل العجب

قلنا ان الحواس الخمس الظاهرة هي الواسطة لشعورنا بالمحسوسات فالعين واسطة الشعور بما يُرَى والاذن واسطة الشعور بما يُسمَع والانف واسطة الشعور بما يُشَمّ وهلمّ جرًّا ولكنّ مراكز الشعور بهذه المحسوسات ليس في الحواس الظاهرة بل في الحواس الباطنة اي في الدماغ نفسهِ . والمهيّئ للشعور قد يكون الحواس الظاهرة المذكورة وقد يكون غيرها من المدركات المحفوظة في النفس . فاذا وصفتَ لانسانٍ قصرًا شاهق البنيان مشيّد الاركان محاطًا بالحدائق الفناء فقد يراهُ بعين بصيرتهِ ولو لم يرَهُ بباصرتهِ وما ذلك الاّ لانهُ يجمع مدركاتهِ المحفوظة في دماغهِ ويجرد منها صورة القصر والحدائق المحدقة بهِ بحسب الوصف الذي وصفتهُ لهُ . وبعكس ذلك قد تقع العين على مرئيّات كثيرة ولا ترى منها شيئًا وما هذا الاّ لان البصيرة كانت مشغولة بمدرَكات أُخرى او كان عملها متوقفًا بسبب ما فانطبعت صوَر المرئيّات على شبكية العين ونقلها العصب البصري الى الدماغ ولكن النفس لم تشعر بها او شعرت بها شعورًا طفيفًا سريعًا فلم يُحفَظ لهُ اثر فيها . ولقد أحسن العرب في فرقهم بين البصيرة والباصرة فان الاولى للنفس بمثابة الثانية للجسد

وشعورنا بالمحسوسات يتوقف على مدركاتنا المحفوظة في النفس كما يتوقف على فعل المحسوسات نفسها بنا . بل ان الشعور الاول قد يسبق الثاني ويتغلّب عليهِ ولا ينتبه الانسان الى نفسهِ الاّ اذا وجد الشعور الثاني مخالفًا للاول مثلما اذا رأى قلّةً بدلّ ظاهرها على انها ملأى ثم رفعها بيدهِ فوجدها فارغة فانهُ يشعر حينئذٍ كأنّ قوّةً ضاعت منهُ وهي القوّة التي كان قد اعدّها لرفع القلّة الملأى . كذلك اذا نزل على سلّم ووصل الى نهايتهِ وهو لا يدري ورفع رجلهُ تهيأً لنزول درجة أُخرى ولا درجة امامهُ فانهُ يتزعزع كمن اضاع شيئًا من قوّتهِ بامرٍ باغت وما ذلك الاّ لانهُ كان شاعرًا في نفسهِ بوجود درجة أُخرى وقد تهيأ لها ثم جاء الشعور الخارجي مخالفًا الشعور الداخلي فأُسقِط في يدهِ . وان لم يكن الشعور الخارجي بعيدًا بعدًا شاسعًا عن الشعور الداخلي فالغالب ان الشعور الداخلي يتغلب على الخارجي ولو كان الاول وهميًّا والثاني حقيقيًّا ولتوضح ذلك بمثلٍ

منذ نحو ثمانٍ وعشرين سنة أُصيب طفلٌ بتشنُّج الاطفال المعروف "بهزّة الحيط" فمات بهِ . وقبل موتهِ بساعات شاع انهُ أُصيب بالعين وأنت احدى العجائز واذابت رصاصة على النار وصبّتها في الماء فوق رأس الطفل فخرجت متجعدة تجعُّدًا غير منتظم كما هو شان الرصاص

المصبوب . فرأت تلك العجوز وكل اللواتي كنّ حولها صورة رجل مسلّح في تجعدات الرصاص وقلن هذه هي صورة الرجل الذي اصاب الطفل بالعين . وكان قد اتى الى بيت ابي الطفل رجلٌ مسلّح قبل ذلك بيوم . ورأينا نحن قطعة الرصاص وامعنّا فيها النظر مرارًا فلم نرَ فيها لا صورة رجل ولا صورة غيره . ولا بدّ من ان النساء رأينَ فيها ما انتظرنَ رؤيته وحتى الساعة يذكّرننا بذلك ويقلنَ انهنّ رأينَ صورة الرجل المسلّح مطبوعة على قطعة الرصاص . واللوم على تريينهنّ وعلى بصائرهنّ التي ترى ما يزينه لها الخيال فتحسبه حقيقةً وتعمّه عن الحقائق . وهذا هو الخداع الداخلي وهو من شر انواع الخداع واشدها سطوةً وسببهُ الاكبر فساد التربية . ولا يعلم عظم ضرره الاّ من يستقصي انواع الجنون الى اسبابها فانهُ يجد جانبًا كبيرًا منها مسبّبًا عن الخداع الداخلي الحادث من فساد التربية . بالامس رأينا شابًّا به طرف من الجنون ولدى البحث وجدنا انهُ عثر بهرّة في ليلة ظلماء فظنها جنيًّا او شيطانًا لكثرة ما روي لهُ من حديث الجن والشبوح فاختلّ عقلهُ وصارت تعتريهِ نوب مثل نوب الجنون . وامثال ذلك كثيرة في هذه البلاد وفي اكثر بلدان المشرق وقد كانت كثيرة في بلدان اوربا ايضًا قبل هذا العصر

وقد يكون الخداع خارجيًّا محضًا كما اذا وضعتَ اصبعك الوسطى فوق السبّابة ولمستَ بانامليها حبة مستديرة كحبّة الحمص فانك تشعر انها حبتان لا حبة واحدة . ولكن خداع اللمس هذا يصلحهُ البصر فيحكم العقل على الكرة انها واحدة ولو شعرتْ بها اليد اثنتين . كذلك اذا وضعتَ طرف قضيب مستقيم في الماء فانك تراهُ معوجًّا وهذا الخلل يصلحهُ الاختبار الطويل فيحكم العقل ان القضيب غير معوجّ . ولولا الاختبار لقبل العقل شهادة العين وحكم باعوجاجهِ . ولقصور الاختبار تخدع الحواس مرارًا كثيرة ويخدع العقل معها ولا سيّما في رؤية اعمال المشعوذين فانهم يحوّلون امام عينيك الماء حبرًا والحبر ماء ويعدمون الموجود ويوجدون المعدوم ويخرزون المسامير في ايديهم والخارز في عيونهم وهم في الحقيقة يغيّرون لون الماء بما يضيفونهُ اليهِ من المواد الكيماوية . ويضعون الموجود في مكان ويجعلونك تنتش عنهُ في غيره . ويدسّون الشيء خفيةً حيث لا ينتظر وجودهُ . ويدخلون ايديهم في مسامير عقناء فيظهر المسمار داخلاً في اليد وبارزًا من طرفيهِ وهو في الحقيقة معقوف على اليد عقفًا . ويستعملون مخارز تدخل ابرتها في نصابها فاذا وُخِزت بها العين اختفت الابرة في النصاب والرائي يظنها دخلت في العين . وقس على ذلك كل اعمال المشعوذين . ومن اغربها ان يطلب المشعوذ ساعةً من احد الحضور فيضعها في هاون

ويسحنها ثم يحشو بها فردًا ويطلقه فيخرج منه صندوق صغير فيفتحه فيجد فيه صندوقًا اصغر منه ويفتح هذا فيجد فيه صندوقًا آخر وهلم جرًا وفي الآخر يجد الساعة سليمة فيردها الى صاحبها

وكيفية العمل ان المشعوذ يأخذ الساعة من احد الحضور ويرجع بها الى الدكة المرتفعة التي يعمل الاعمال عليها ورجوعه الى مكانه امر طبيعي ضروري لا يحتسب منه احد ولكن المشعوذ يتخذ رجوعه وسيلة لابدال الساعة الحقيقية بساعة من تلك ويضع هذه في الهاون ويكسرها ثم يأتي صانعه بالفرد . ومجيء الصانع امر طبيعي لا يُلتفت اليه ولكن هذا الصانع يأخذ الساعة الحقيقية ويمضي بها ويضعها في صندوق صغير . ثم يضع المشعوذ الساعة المكسرة في الفرد ويطلق البارود من جانب آخر منه فينتشر الدخان في المسرح وحينئذٍ يعلق الصانع الصندوق حيث اطلق الفرد ولا ينتبه اليه احد ثم يأتي ليأخذ الفرد فيضع الصندوق الصغير الذي فيه الساعة في نقرة صغيرة بين اهداب غطاء المائدة التي امام المشعوذ . اما المشعوذ فيأخذ الصندوق المعلق ويضعه على المائدة ويشرع يفتحه ويفتح الصناديق التي فيه ثم يقوم ليري الصندوق الداخلي للحضور فيبدله بالصندوق المخفي تحت اهداب المائدة وهذا فيه الساعة الحقيقية كما تقدم فيردها الى صاحبها . وقد يتصرف على طرق أخرى غير هذه وغايتها كلها صرف انتباه الحضور عما هو ضروري من اعماله الى ما هو غير ضروري . ومهارته كلها تقوم في ذلك وهو ليس بالامر العسير عليه لانه اذا بسط يداه واحدق اليها بنظره تنظر الحضور كلهم الى يداه وتغافلوا عما يعمله بيسراه . ولتعوُّد الناس على رؤية اعمال المشعوذين ولاقرار المشعوذين انفسهم ان ما يعملونه انما هو نتيجة الحفة والصناعة لا سحر فيه ولا كرامة يكتفي الناظرون بالاندهال من اعمالهم كما يندهلون من الفرسان البارعين والصنّاع الماهرين . ولكن لو كان المشعوذون من اهل المكر والخداع يدّعون ان اعمالهم خوارق وكرامات لصدّق كثيرون دعواهم ونسبوا مَن ينكرها الى المكابرة والالحاد . هذا ولنعد الى الخداع الداخلي فهو الذي يستحق ان يُنظر فيه من وجهٍ فلسفي

ان مراكز الشعور الداخلي لا تبقى دائمًا على حالتها الصحيّة ولا تشعر على صورة واحدة دائمًا فاذا مشى الانسان على نور ساطع ثم دخل غرفةً قليلة النور رأى فيها ظلمةً شديدة واذا مشى في الظلام الدامس ثم دخل الغرفة نفسها رأى النور فيها ساطعًا . واذا وضع يدهُ في ماء بارد ثم في ماء فاتر وجدهُ سخنًا ولكن اذا وضعها اولاً في ماء سخن ثم في هذا الماء الفاتر وجدهُ باردًا . وقس على ذلك امورًا كثيرة يختلف فيها شعور الانسان الواحد باختلاف الاحوال مما يدلُّ على ان مراكز الشعور لا يجري فعلها على وتيرة واحدة . فاذا دخل اثنان

غرفة واحدة وكان احدها آتيًا من مكان مظلم والثاني من مكان منار فالاول يرى في الغرفة نورًا كثيرًا والثاني يرى فيها ظلمة وكل منهما يبني حكمه على شهادة حواسهِ فيختلف الحكمان في الشيء الواحد ومصدر الاختلاف ليس في ذلك الشيء بل في نفسي الرجلين. وعلى هذه الصورة يستطول الانسان ساعة الانتظار ويستقصر ساعات السرور ويستحمل ما يحبهُ ويستشنع ما يكرههُ. واذا كان العقل سليمًا والعواطف غير منهيجة فالغالب ان الانسان يُصلح خطأهُ بنفسهِ ويقوّم الاحكام التي عرّجها الاهام ولكن اذا كان العقل مأوقًا او العواطف منهيجة فالغالب ان المخيلة تتصرّف في الاحكام وتزيدها اعوجاجًا على اعوجاج وابهامًا على ابهام فيشعر هذا شعورًا غير عاديّ في بدنهِ فيعتقد انهُ مركّب من الزجاج ويشعر ذاك شعورًا آخر فيعتقد ان عليهِ شيئًا او ان فيهِ شيطانًا حلّ فيهِ حلول النفس في الجسد

ولا بدّ في كل حس من شيء محسوس وقوّة حاسّة والغالب اننا نلتفت الى المحسوس ونغضّ الطرف عن القوّة الحاسّة مع ان نوع الحس يتوقف عليها كما يتوقف على المحسوس. فاذا انتشرت الغيوم وتراكمت فالعالمي الساذج يرى فيها جبالاً وجمالاً والمصوّر الماهر ينظر الى الوانها واظلالها. واذا مرّ الحطّاب والنباتي والجيولجي في ارض واحدة فالاوّل ينتبه الى ما فيها من الحطب والثاني الى ما فيها من النباتات والثالث الى ما فيها من الصخور والاحافير وكلٌّ منهم يصفها بحسب ما انتبه اليهِ وهي واحدة والبواصر متشابهة ولكن اختلاف البصائر جعل كلاًّ منهم يرى ما لم ينتبه اليهِ الآخر. وهذا الاختلاف في البصائر يتوقف على تدريبها وتعويدها وعلى حالة الجسم والاحوال المحيطة بهِ. فالمتعلم يرى ما لا يراهُ الجاهل والصحيح يلتذ بما لا يلتذ بهِ المريض. والجائع يستطيب ما لا يستطيبهُ الشبعان. ودواعي السرور تسر الانسان في اليوم البهيج اكثر مما تسرّهُ في العبوس وقس على ذلك

واذا كانت المحسوسات غير واضحة تمام الوضوح فهناك مجال واسع لانخداع الحواس. والانتظار هو الفاعل في هذا الخداع فالذي ينتظر ان يرى تنينًا في السماء لا يتعذّر عليهِ ان يرى بين الغيوم غيمة تشبه التنين. والذي ينتظر ان يرى صورة اخيهِ في مرسح السبرترم حيث تتجلّى الارواح على ما يزعمون يرى صورة اخيهِ في كل شبح يتجلّى لهُ بل قد ينتظر كثيرون ان يروا اخوتهم فيتجلى لهم شبح واحد فيراهُ كلٌّ منهم مشابهًا لاخيهِ وقد لا يكون الاّ ثيابًا مجموعةً على كرسي. والذي يدخل غرفة مظلمة في الليل يرى فيها كل ما ينتظر رؤيتهُ من الغيلان والشياطين وارواح الموتى وهو لا يرى في الحقيقة الاّ اوهامهُ. والذي

ينتظر مجيء صديقه الى داره بحسب كل صوت يصوت وقع اقدامه. والمشعوذون يعلمون ذلك ويستخدمونه لاغراضهم فيتوّون انتظار الحضور في مراسيمهم حتى يمهلوا عن غير ما انتظروا ولكن قد شاع عند الجمهور ان اعمالهم كلها ناتجة عن الخفة والمهارة فلا يرتاعون منها واذا كانوا عارفين بسرّ بعضها امكنهم ان يكشفوا سرّ البقية . ولو اعتقد الجمهور ان المشعوذين كهنة او سحرة يفعلون ما يفعلون بقوّة الهيّة او شيطانيّة واستولى عليهم الرعب سهل على المشعوذين ان يقودوهم كيف شاءوا ويخدعوهم بما يشاؤون . واذا انقاد الانسان مرّة الى اعمال الدجالين وصدّقها سهل عليه ان يصدق كلما يدجلون عليه به ولم يعد يدقق نظره في ما يفعلون ويصير التصديق بالخوارق من اسهل الامور عليه بل قد يعتريه ضربٌ من الجنون

والاعتقاد يسهّل سبل الخداع فلما كان الناس يعتقدون بصحة السحر كان السحر كثيرًا رغمًا عما ابتُلوا به من القتل والحيف . ولما كانوا يعتقدون ان الشيطان يسكن الناس كانت الشياطين تُرَى في كل مكان . اما الآن وقد ضعف الاعتقاد بالسحر والشياطين فغاب الفريقان عن ربوع المتمدنين وضربا اطنابهما في خيام المتوحشين

وجملة القول ان الخداع على ضربين خارجيّ سببه اختلال الحواس الظاهرة او التباس الامور عليها لجريانها على سنن غير معروفة او لتوسط مشعوذ يذهل الابصار بخفته ويصرف الانظار عن غير وجهتها . وداخليّ سببه خلل في الحواس الباطنة لمرض او لمؤثر آخر . وكلٌّ منها اما سليم العاقبة كروْية القضيب المستقيم اعوج اذا كان طرفه في الماء وحسبان الساعة ساعتين اذا كانت ساعة انتظار . واما وخيمها كاعتقاد المسعوذة سحرًا والخضوع لسلطان الاوهام والخرافات . وما من سبيل للنجاة من الخداع الوخيم العاقبة الاّ نشر العلوم والمعارف وانارة العقل بنور العلم حتى يضمحل منه ظلام الجهل

فقر رجال العلم

ذكرنا في الجزء الماضي ان رجلاً من الشركاء في السكك الحديدية مات عن مليونين من الجنيهات . ويسوءنا ان نقول ان اهل البر يسعون الآن بترتيب معاش لارملة العلامة الشهير الفلكي رنشرد بركتر الذي ذكرنا خبر موته في الجزء الثاني لانه لم يترك لها ولاولاده الستة ما يقوتهم ويكسوهم